

الفصل الخامس



خلال هذه الأوقات العصيبة، اكتشفت المولّد الموجود في الدّراجة الهوائية.

وقد أُلْفِتْ مشاهدة مثل هذه المولّدات على الدّراجات الهوائية، التي كانت توصل بالعجلة، وتشبه علبة معدنية صغيرة، لكنني لم أكن أُلْقِي لها بالأحينا. ولكن، في إحدى الأمسيات، وصل صديق لوالدي إلى بيتنا يقود درّاجة هوائية تحوي مصباحاً يعمل بمولّد. وقد انطفأ الضوء حالما ترجّل عن الدّراجة.

وفي واقع الأمر، لم أشاهده يُغلق مفتاحاً كهربائياً، فسألته:

لماذا انطفأ المصباح؟

أجاب: إنّه المولّد؛ فقد توقّفت عن تحريك الدوّاسات.

وحالما دخل لمقابلة والدي، قفزت على درّاجته؛ لأجرب الأمر بنفسي، وأتحقّق من قدرتي على إضاءة المصباح. وبعد قيادة الدّراجة أمتاراً عدّة، أضاء المصباح. حينئذٍ، ترجّلت عن الدّراجة، ثمّ قلبتها رأساً على عقب، ثمّ أخذت أتتبع الأسلاك الخارجة من المصباح إلى الإطار الخلفي حيث ثبّت المولّد. كان للمولّد عجلة معدنية مخصوصة به تضغط على المطاط. وحين أدرت الدوّاسة بيدي تحرك الإطار، ودارت عجلة المولّد، فأضاء المصباح.

لقد عَلِقَ هذا الأمرُ في مخيَّلي. كيف لعجلة تدور أن تُتَبَّجِ الضوء؟ وسرعان ما بدأت أستوقف كلَّ مَنْ يستعمل مولِّداً لأسأله عن كيفية عمله.

سألت أحدهم ذات مرَّة: لماذا يضيء المصباح عندما تبدأ باستخدام الدوَّاسات؟
فأجاب: لأنَّ المولِّد يدور.

قلت: أعرف أنَّه يدور. ولكن، كيف يعمل؟ ما السر وراء ذلك؟
قال: لا أعرف.

فسألته: هل يمكنني اللعب به؟
فأجاب: تفضَّل.

أدرت العجلة، وأخذت أراقب الضوء. وفي أحد الأيام، وعندما كنت ألعب بدراجة صديق والدي، لاحظت أنَّ أسلاك المصباح (اللمبة) قد ارتخت. كانت العجلة تدور، فلمست أطراف المقبض المعدني من غير قصد، فرأيت شرارة، فاستنتجت من تلك الحادثة فكري اللاحقة. ففي ظهيرة أحد الأيام، استعرت أنا وجيفري الدراجة نفسها. وبعد أن قلبناها رأساً على عقب، وأوصلنا الأسلاك إلى القطبين السالب والموجب في المذياع؛ أي مكان البطاريات؛ أدرنا الدوَّاسات، لكنَّ شيئاً لم يحدث قطَّ. قمت بعدها بإيصال الأسلاك بقاعدة مصباح المولِّد مباشرة. وعندما حرَّك جيفري الدوَّاسات هذه المرَّة، أضاء المصباح. ثمَّ أخذت البطاريات التي كنت قد نزعتها عن المذياع، وكدَّستها معاً، ثمَّ وصلتها بالمصباح بسلك منفصل، فأضاء المصباح مرَّةً أخرى.

قلت: سيد جيفري، لقد أظهرت تجربتي أنَّ المولِّد والمصباح يعملان على نحوٍ جيد. فلمَ لا يعمل المذياع إذن؟

أجاب: لا أعرف، جرِّب وصلها هنا.

وكان يشير إلى تجويف في المذياع، كُتِبَ عليه (ايه سي). وعندما أدخلت الأسلاك فيه، اشتغل المذياع، فصرخنا من شدَّة الحماس. وحين كنت أدير الدوَّاسات، تمكَّنت من سماع

بيلي كاوند العظيم يعزف موسيقاه البهيجة عبر محطة راديوتو، الأمر الذي دعا جيفري إلى الرقص.

قال: استمر في إدارة الدوَّاسات. أحسنت، استمر.

قلت: وأنا أريد الرقص أيضاً.

قال: انتظر دورك.

كنت قد اكتشفت من دون أن انتبه الفرقَ بين التَّبَّابين؛ المتناوب والمستمر. ولم أكن أعرف ما يعنيه ذلك إلا بعد مدَّة.

وبعد إدارة دوَّاسات الدَّرَاجة المقلوبة بيدي بضع دقائق، أصاب التعب ذراعي، فتوقَّف المذياع عن العمل تدريجياً. لذا، بدأت أفكّر في شيء يمكنه إدارة الدوَّاسات لنا لأتمكّن من الرقص أنا وجيفري؟

لقد منحني المولد بعض الكهرباء؛ ما حفزني إلى تعرّف كيفية توليدها بنفسي. يُذكَر أنّ الكهرباء تصل إلى ما نسبته 2% من مالوي فقط، الأمر الذي يُعدّ مشكلة كبيرة. فغياب الكهرباء يعني غياب الضوء الذي يحول دون فعل أيّ شيء في أثناء الليل؛ كالدراسة، وإصلاح أجهزة المذياع، فضلاً على رؤية الصراصير والفئران والعناكب التي تزحف على الجدران والأرض في الظلام. فما إن تغيب الشمس، ويختفي ضوء القمر، حتى يوقّف الجميع أعمالهم، ثمّ ينظّفون أسنانهم، ثمّ يخلدون إلى النوم. أنا لا أتحدث هنا عن شيء يحدث الساعة العاشرة ليلاً، أو التاسعة، إنّما الساعة مساءً! فمَنْ يخلد إلى النوم في هذه الساعة؟ حسناً، أستطيع أن أجيبكم: معظم سكان إفريقية.

لقد استخدمت عائلتي، شأنها في ذلك شأن معظم العائلات، سراجاً يعمل بالكاز لتلمّس طريقها في أثناء الليل. ولم يكن ذلك السراج سوى عبوات حليب مجفّف من نوع نيدو، مضاف إليها فتيلة من قماش، تُملأ بالوقود، وتُغلق فوهتها بالثني. فقد كان الوقود باهظ الثمن، وكان المكان الوحيد الذي يبيعه بسعر معقول هو محطة وقود في متونثاما التي تبعد سبعة كيلومترات. أصدر السراج دخاناً أسود كثيفاً يحرق العينين ويسبّب السعال. أجل،

يمكنك شراء فانوس زجاجي بغطاء يقي من الدخان، لكنَّ معظم الناس لا يستطيعون تحمّل ثمن هذا النوع من المصابيح.

تعمل الحكومة على تزويد البلد بالطاقة عن طريق شركة مالاوي لتزويد الكهرباء التي تولّد الكهرباء بواسطة مولّدات موجودة على نهر شاير في الجنوب؛ وهو شيء آخر يفتنني، وسأتحدث عنه لاحقاً.

إذا كنت تملك مالاً وكثيراً من الصبر، فيمكنك الطلب إلى الشركة إيصال الكهرباء إلى بيتك عن طريق الأسلاك. يتعيّن عليك أولاً أن تركب شاحنة إلى كاسونغو، ثم حافلة صغيرة، والسير مسافة مئة كيلومتر حتى تصل الحافلة إلى العاصمة ليلونغوي، حيث مكاتب الشركة في ماجستي هاوس. وفيها تدفع بضعة آلاف من الكواتشا لأحد الموظفين، بعد أن تملأ طلباً، وترسم لهم خارطة لبيتك؛ كي يتمكّنوا من إيجادها. وإذا حالفك الحظ، فربّما يُوافق على طلبك، ويتمكّن العمّال من إيجاد بيتك لت تركيب العمود والأسلاك؛ وهي معدّات يتعيّن عليك أنت تحمّل ثمنها. وحين تصلك الطاقة أخيراً، فإنّك تشعر بالسعادة لتمكّنك من البقاء مستيقظاً حتى الساعة العاشرة مساءً، وتطلّ ترقص على الأنغام الصادرة من المذياع، إلى أن تقرّر الحكومة قطع التيار، وهو أمر يحدث كلّ أسبوع، ويكون عادة بعد هبوط الظلام. وبذا، يشعر المرء بعدم الجدوى من كلّ المال الذي دفعه، والمجهود الذي بذله لإيصال الكهرباء، ويرى أنّ الخلود إلى النوم عند الساعة مساءً هو أفضل الطرق وأسهلها.

تُسهّم إزالة الغابات في مشكلة الطاقة أيضاً. فقد أخبرني جدّي ذات مرّة أنّ بلدنا كانت مكسوّة بالغابات في الماضي، حتى إنّ الطرقات كانت تبدو مظلمة وقت الظهر من كثافة الأشجار. لكنّ استحواذ شركة التبغ على معظم الحطب سنين طويلة، واستخدامه لمعالجة الأوراق قبل عرضها في المزاد، كلّ ذلك أسهم في تدمير هذه الثروة الوطنية. إضافة إلى استخدام عمّال التبغ المحليين مزيداً من الأخشاب في بناء أكواخ لتجفيف الأوراق فيها، لكنّ تلك المياني لم تكن تصمد أكثر من موسم بسبب النمل الأبيض. أمّا بقية الحطب فاستخدمه بقية الناس للطبخ، لأن الكهرباء غير متوافرة. وقد تفاقمّت المشكلة في المناطق المحيطة بويمبي، لدرجة أصبح معها قطع مسافة خمسة عشر كيلومتراً على

الدَّرَاجَة الهوائية لإيجاد بعض الحطب أمراً معتاداً. لكنّه غير عملي؛ فكم ساعة يمكن الإفادة من كومة حطب مثلاً؟

القلة يدركون حقيقة أنّ قطع الأشجار هو أحد أسباب فقرنا نحن معشر المالايين؛ فمن دون الأشجار، تتحوّل الأمطار إلى فيضانات تجرف التربة والمعادن الموجودة فيها، حيث تستقر التربة -فضلاً على كميات كبيرة من النفايات - داخل نهر شاير، وتتسبّب في إغلاق السدّ بالطيني والنفايات، ما يؤدي إلى توقّف المولّد عن العمل. عندئذٍ، تضطر محطات الكهرباء إلى إيقاف عملياتها كلها لجرف النهر، الأمر الذي يتسبّب في انقطاع التيار. ولما كانت تلك العملية مكلفة جداً، تقوم شركة الكهرباء باستيفاء رسوم إضافية، ممّا يجعل تحمّل نفقات الحصول عليها أمراً صعباً. وبذا، فمع غياب المحاصيل بسبب الجفاف والفيضانات، وغياب الكهرباء بسبب الانسدادات وغلاء النفقات، يقوم كثير من الأشخاص بإعانة عائلاتهم عن طريق قطع الأشجار، واستخدامها حطباً في الطهو، أو بيعها فحماً. على هذا المنوال تجري الأمور هنا.

كان أحد خطوط الكهرباء تلك يُغذّي شركة التبغ القريبة، ويُرَوّد بيت جيلبرت بالكهرباء أيضاً؛ إذ كانت عائلته قادرة على تحمّل ثمن العمود والأسلاك، ولا سيّما أنّ والده كان زعيم بلدة ويمبي. حين زرت جيلبرت أول مرّة عندما كنت صغيراً، رأيته يدخل بيته ويلمس الجدار، فإذا بالللمبة تضيء، فقط بمجرّد لمس الجدار! وأعرف الآن - بالطبع - أنّه كان - ببساطة - يضغط على زرّ إشعال الضوء. وكنت، بعد ذلك اليوم، كلّما زرت جيلبرت وشاهدته يلمس الجدار فكّرت مع نفسي متسائلاً: لماذا لا أستطيع لمس الجدار للحصول على الضوء؟ لماذا أضطر إلى البقاء في العتمة، والبحث عن عود ثقاب؟

وفي واقع الأمر، فإنّ إيصال الكهرباء إلى بيتي يتطلّب أكثر من مجرد مولّد درّاجة هوائية، علماً بأنّ عائلتي لا يمكنها تحمّل ثمن أحدها. لذا، توقّفت عن التفكير في الموضوع بعد مدّة؛ للتركيز على أشياء أهم، مثل: التخرّج من المدرسة الابتدائية.

في منتصف شهر أيلول، ورّع المدرّسون في مدرسة ويمبي الابتدائية - بعد طول انتظار - أوراق الامتحان النهائي، متمنّين لنا التوفيق. وكنت قد درست بجدّ في الأشهر القليلة الماضية التي سبقت الامتحان؛ إذ كنت أشعل السراج وأسهر لوقت متأخّر، وأنا أراجع

ما ورد من تمارين في كتب السنوات السابقة؛ لأنَّ امتحان المعايير الثمانية يشمل كلَّ شيء. وقد انكبت على دروس الزراعة متذكراً التقنيات الصحيحة لتهيئة الأرض لزراعة الجوز، والأنواع المختلفة لسجلات المزارع، وكيفية تعرّف أكانت دجاجتك مصابة بالطاعون الطيري أو جدري الدجاج؟ أما العلوم الاجتماعية والبيئية، فقد راجعت دور الموظفين الحكوميين، والسياسيين، ودور السلطة القبلية في المنظومة الإدارية للمنطقة. ولما كانت دروس لغة تشيتشيو سهلة، فقد قضيت معظم الوقت المخصّص لها في دراسة اللغة الإنجليزية؛ بكتابة الجمل، ومراجعة القصص. وكانت إحدى القصص المفضّلة لديّ هي (رحلة إلى مالوكويت) التي تتحدث عن صبي يُدعى يمبي دودو، خرج لصيد الطيور ذا صباح، وتعرّض للاختطاف من كائنات فضائية، أطول من شجرة، وأعرض من فيل، ولدى كلِّ منهم ثلاث أعين. وقد اقتادته هذه المخلوقات على متن سفينتهم الفضائية، وأكلوا طيورهم. لا يمكنني تخيّل حدوث شيء مثل هذا.

قدّمت الامتحانات على مدار ثلاثة أيام؛ إذ كانت مادتا الدراسات الاجتماعية واللغة الإنجليزية في اليوم الأول، ولغة تشيتشيو والرياضيات في اليوم الثاني، والعلوم التمهيديّة في اليوم الثالث. مرّت الأيام الثلاثة بسرعة بين الصفحات المتلوّنة بالأبيض والأسود، وأقلام الرصاص المكسورة، وبعض الأسئلة الغريبة.

وقد اعتدت أن أقضم أظافري في أثناء حلّ المسائل المتعلقة بالنسب والمثلثات المتساوية الأضلاع، ومحيط الدائرة. كانت أعصابي منهكة مع نهاية الامتحان، لكنني شعرت بثقة كبيرة. وقد جرت العادة أن تُعلن النتائج في شهر كانون الأول؛ أي بعد ثلاثة أشهر طويلة.

وفي حال تمكّنت من اجتياز الامتحان، فسيسمح لي أخيراً بالانخراط في مدرسة متوسطة تختارها الحكومة. ويوجد ثلاث مدارس داخلية فقط من أصل ست مدارس في المنطقة كلّها. يعرف الجميع أنّ الحكومة تقصر تمويلها على المدارس الداخلية فقط. لذا، فمن الطبيعي أن يرغب أيّ طالب جادّ في الالتحاق بها. لقد كان العيش وحدي في مدرسة حلماً رائعاً لا يفارق مخيلتي.

ولكن، بغض النظر عن المدرسة التي سألتحق بها، فإن الدراسة تبدأ في شهر كانون الثاني. ويمثّل ذلك الأمر إشارة واضحة إلى أنّك أصبحت رجلاً. وفي المقابل، كان الالتحاق بالمدرسة المتوسطة يتطلّب دفع رسوم محدّدة. لذا، فإنّها لم تلق إقبالاً من المالاويين. كانت شقيقتي الكبرى آني ترتاد مدرسة متوسطة في متونثاما، وقد أنهت نصف المتطلّبات حتى الآن. كنت أغار منها كثيراً، لكنّ وقتي قد حان الآن. وكان الأمر يمثّل بالنسبة إليّ طريقاً نحو علامة أخرى بارزة أيضاً؛ إذ سيمكنني أخيراً التخلّص من ارتداء السروال القصير المخصوص بأطفال المدارس الابتدائية، والمشي مرتدياً بنطالاً.

بعد انتهاء الامتحان، انتظرت غيلبرت في الخارج. وعندما غادرنا المدرسة، قلت له: سنودّع السراويل القصيرة يا رجل.

فقال: طبعاً، لقد أصبحنا أحراراً في الصباح حتى يحين موعد بدء الدراسة مرّة أخرى. فماذا سنفعل؟

قلت: لنذهب إلى الصيد. فنحن لم نقم بذلك منذ زمن.

قال: بكل تأكيد.

وعلى الرغم من أنّني كنت أستمع بالعطلة المدرسية، فإنها كانت تفقد بهجتها كلّما تقدّمت في السنّ؛ إذ كان هنالك دائماً كثير من العمل في المزرعة، وكان والديّ في حاجة إلى مساعدتي، فضلاً عن تنظيف الأرض والأثلام استعداداً للبذار، فقد كان شهر أيلول هو موعد تحضير التبغ وإعداده للزراعة. يُذكر أنّ فسائل التبغ تحتاج إلى حُب ورعاية أكثر من الذرة حتى تنمو قوية.

وكما ذكرت آنفاً، فإنّ فسائل التبغ تُزرع أولاً في مشاتل قرب الدامبو؛ حيث التربة خصبة جداً. ولأنني أنهيت الدراسة الآن، فقد أصبحت وظيفتي الذهاب إلى الدامبو كلّ يوم، ورّي النباتات اليافعة من النبع، مع الحرص على منح كلّ منها كمية الماء نفسها؛ لكي تتمكّن من الدفاع عن نفسها من أشعة الشمس. لقد واطبت على فعل ذلك حتى شهر كانون الأول، وهو الموعد المحدّد لقلع النباتات ونقلها إلى الحقل.

وبعد أن أنهيت العمل في المشاتل أواخر أيلول، ذهبت برفقة غيلبرت إلى السوق التجاري للعب الباوو، ثم قفلنا راجعين إلى بيته. ولدى وصولنا، لاحظت شيئاً غريباً يسود المكان؛ إذ تجمّع بعض الأشخاص في باحة البيت، متفيتين بظلال بستان اليوكالبتوس، ومتحدثين بصوت خافت، وقد بدا على مَحْيَاهم طابع الجدّية. وكان من بين الحضور بعض الرجال، لكنّ جُلّهم كان من النساء اللاتي ربطن رؤوسهنّ بالمبانغو ذي الألوان الزاهية، وحملن سلالاً فارغة. لم يبدُ غيلبرت متفاجئاً من هذا المنظر، فسألته عن ماهيتهم.

فأجاب: إنهم قرويون يعيشون في الغابة، وقد نفذ طعامهم. لقد جاؤوا إلى والدي طلباً للعون أو الغانيو. وقد سار بعضهم أياماً عدّة للوصول إلى هنا.

يذكر أنّ كلمة «غانيو» تعني الأجر بالمياومة، وكانت تلك هي الطريقة التي يعتاش بها كثير من الرجال في مالوي، في أثناء موسم الجوع عند شحّ مؤنثهم الغذائية، حتى إنّ والدي اضطر - أحياناً - إلى العمل بنظام الغانيو في شركات التبغ؛ وذلك بحضر الأتلام لقاء بعض كيلوجرامات من دقيق الذرة. وبوجه عام، كانت الشركات الموجودة في المنطقة تسمح بالعمل بحسب نظام الغانيو؛ ما يتيح للجميع تدبّر أمورهم. لذا، فقد كانت رؤية أولئك الأشخاص هنا أمراً محيراً.

سألته غيلبرت: لماذا لا يعملون هناك (لدى هذه الشركات)؟

أجاب: لقد حاولوا ذلك. ولكن، حتى الشركات لا يمكنها تقديم شيء هذا العام.

قلت: ماذا سيفعل والدك إذن؟

قال: سيطعمهم، ليس لديه خيار آخر، فهو زعيمهم.

لقد كان الأمر صحيحاً، فقد كانت إيرادات محاصيل الذرة في القرى النائية أقلّ من إيراداتها خلال حدوث الفيضانات والجفاف، ونفدت مخزوناتهم بعد أربعة أشهر فقط. وسرعان ما أصبح شحّ الطعام لدى الجميع الموضوع الأكثر تداولاً في المركز التجاري.

وفي أحد الأيام، طلبت إليّ أمي شراء الملح من متجر السيد باندا، فسمعتة يتحدث عن موضوع نقص الغذاء. وكان السيد باندا قد اعتاد بعد موسم الحصاد في شهر حزيران من

كلّ عام، زيارةٌ كثير من القرى الممتدة حتى كاسونغو؛ بغية شراء كميات كبيرة من الذرة، ثمّ بيعها في موسم الجوع بسعر مرتفع عادة. ولكنّ الصوامع كانت فارغة هذا العام أيضاً. وقد علّق على ذلك، قائلاً: ذهبت إلى ماساكا لكنني لم أجد شيئاً لشراؤه، وعلى هذه الحال في تشيمبيا أيضاً، مع أنّه يكون لديهم فائضٌ عادة. ثمّ أُصدّق ما رأيته حقاً.

أخبرت والدي بما حدث في بيت جيلبرت، وما قاله السيد باندا. فقال: إنّهُ على دراية بذلك، وإنّه لا يتعيّن علينا أن نقلق. وقد دأب الناس على شراء بعض الذرة من شركة برس الزراعية الكبيرة في موسم الجوع؛ إذ عملت هذه الشركة على زراعة محصول مخصوص بها، وجني المال من بيع فائض الإنتاج. وقد أخبرت والدي بالمقولة التي يتداولها الناس في المركز التجاري، ومفادها أنّ الشركة خاوية على عروشها.

فقال لي: لا بأس، فالحكومة لديها فائض في المخزون. وإذا تعذّر على شركة برس تسيير الأمور فستأخذ الحكومة الذرة إلى شركة إدمارك (شركة تسويق المنتجات الزراعية)، حيث يمكن للناس شراء حاجتهم من هناك.

يُذكر أنّ إدمارك هي شركة حكومية تبيع الذرة في الأسواق بأسعار تفضيلية، بعد أن تحصل عليها من فائض محصول مزارع الحكومة.

كانت فروع شركة إدمارك منتشرة في منطقتنا، وكان بإمكان أيّ شخص التوجّه إليها لشراء بضعة كيلوجرامات من الذرة بسعر معقول.

قال والدي: لا تدع هؤلاء الناس يثيرون خوفك. لن نجوع مهما حصل.

ولكن، في ظهيرة أحد أيام نهاية شهر أيلول، عاد والدي إلى البيت، وسمعته يتحدث إلى والدي. كان قد عاد للتو من تجمّع في المركز التجاري، دعا له حزب المؤتمر المالاوي المعارض الذي يرأسه المزارع الأول الرئيس باندا. وقد حضر هذا التجمّع آلاف الأشخاص، ووقف مسؤولون من المعارضة على المنصة، وألقوا خطابات حماسية بوساطة مكبرات الصوت. ثمّ حاول بعض أتباع (بلطجية) الرئيس مولوزي (يُطلق عليهم اسم الديموقراطيين الشباب) إيقاف التجمّع، لكنّ مزارعين من قرى مختلفة وقفوا سداً منيعاً أمام المنصة للسماح للمعارضة بالكلام.

وقد نقل هؤلاء الرجال أخباراً مروّعة؛ فقبل شهور عدّة، قام أتباع الرئيس مولوزي ببيع فائض المحصول؛ بغية جني الأرباح. ثم نُقل معظمها عبر الحدود في شاحنات باتجاه كينيا. وفقدت ملايين الكواتشا من دون أن يتحمّل أحد من الحكومة المسؤولية.

قال والدي حينها: يقولون: إن الفائض قد اختفى. ستحلّ هذا العام كارثة تطالنا جميعاً.

فقلت والدي: كلّ ما نستطيع فعله هو الإيمان بالله تعالى.

أمّا ما حدث فكان كالآتي: تسبّبت الفيضانات والجفاف من العام المنصرم في نقص حادّ في الغذاء، على نحو أكبر ممّا كان يعتقد الناس. ومارس المجتمع الدولي (صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي تحديداً) ضغوطاً على الحكومة لكي تسدّد بعضاً من ديونها، ببيع جزء من احتياطات الحبوب؛ لأن تخزينها كان مكلفاً. وبدلاً من ذلك، باع بعض موظفي الحكومة الفائض كلّه، من دون ترك أيّ شيء لحالات الطوارئ. وفي واقع الأمر، لم يعرف أحد أين ذهب المخزون. يقول بعضهم: إنّه عبر الحدود باتجاه كينيا وموزمبيق. في حين يقول بعض آخر: إنّ جزءاً كبيراً منه أُخذ إلى إدمارك كما جرت عليه العادة، لكنّ الموظفين الفاسدين هناك خزّنوه مدّة طويلة حتى أصبح غير صالح للاستهلاك. وما لا شكّ فيه أنّ معظم الذرة الجيدة كانت تُباع لكبار التجار الذين يملكون صلات مع الحكومة؛ أي أنّهم تتبّأوا بحدوث النقص، فأرادوا استغلال هذا الوضع المتردي، واحتكار السوق. لذا، انتظروا حتى نفاذ الطعام لدى الجميع، ثمّ رفعوا الأسعار إلى الضعف.

كان والدي محقّقاً؛ إذ كنّا على وشك التعرّض لكارثة. ولكن، حتى هو كان يجهل مدى السوء الذي ستؤول إليه الأوضاع مستقبلاً.

وكما كان متوقّعاً، فقد بدأ سعر الذرة بالارتفاع في الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول بمقدار الضعف ليصبح سعر الحزمة ثلاث مئة كواتشا بعد أن كان سعرها المعتاد في ذلك الوقت مئة وخمسين؛ ما دفع الناس إلى البحث عن مصادر أخرى للغذاء.

كانت معدتي تقرر في ظهيرة أحد الأيام قبل العشاء، فذهبت إلى بيت جارنا السيد موالى لأرى إن كانت لديه بعض ثمار المانجو الناضجة على أشجاره. وحين وصلت هناك،

كان موالي وعائلته جالسين على وشك تناول الطعام، فقلت: ها، نديما ليما. إنّه توقيت جيد؛ فقد وجدت الطعام، أليس كذلك؟

بعد أن قلت ذلك، لاحظت أنّهم يغمسون أوراق اليقطين بالمانجو المطهوه. وفي الحقيقة، فقد كانت المانجو غير ناضجة؛ عرفت ذلك من لونها الأخضر الذي يؤكّد مرارة طعمها في الأغلب. إنّها لم تكن ناضجة للأكل بعد.

قال موالي ضاحكاً: أنتَ تقول نديما ليما. ولكن، كما ترى فإننا نأكل المانجو بدل السيما. لا يوجد طعام حقيقي هنا.

شاهدت لاحقاً صفّاً من الرجال الذين لا أعرفهم، والذين كانوا يحضرون الأتلام في حقول موالي. لقد جاؤوا من قرى أخرى، إنّهم نفس الأشخاص الذين تجمّعوا سابقاً في بيت غيلبرت. وحين غادروا بعد ساعات، كان كلّ منهم يحمل حفنة من ثمار المانجو الخضراء غير الناضجة لقاء عمله.

وبينما كنت أتمشى في المركز التجاري بعد ذلك بأيام، لاحظت شيئاً آخر لم أراه من قبل؛ إذ نصبت بعض البائعات خيماً بلاستيكية على قارعة الطريق لبيع الغاغا. والغاغا هي القشور أو التبن الذي يغطّي لبّ عرانيس الذرة. وعادة ما تُفصل تلك القشور في الطاحونة، ثمّ تُرمى أو تُباع علفاً للبهائم (كانت تعدّ طعاماً مثاليّاً بالنسبة إليّ عند صيد الطيور). تُستخدم الغاغا أيضاً في صنع خمر الكاتشوسو الذي يحبه جدّي كثيراً، حتى إنّ كثيراً من النساء يستخدمنها في إشعال النار للطهو. وقد سمعت أنّ هنالك أناساً يعانون فقراً مُدقعاً، ويأكلون الغاغا في أوقات العسرة، مع أنّها لا تحتوي إلّا على قليل من العناصر الغذائية. وبذا، فهي لا تُعدّ طعاماً مناسباً. فنحن نطعم الغاغا لدجاجنا ونشترها بعد جمعها عن أرضية الطاحونة بأنفسنا.

وبعد أن أصبح سعر حزمة الذرة ثلاث مئة كواتشا الآن، رأيت أكياساً ضخمة من الغاغا تُباع بمئة كواتشا للكيس الواحد؛ أي عشرة أضعاف سعرها قبل شهر. وقد احتشد الناس وتدافعوا رافعين دلاءهم المعدنية للحصول على بعض منها. وممّا سمعته قول إحداهنّ: ابتعدي، أنا جئت أولاً.

وقالت أخرى: كلنا جِياع يا أختاه، لا يوجد دور في ذلك.

كان الوضع مشابهاً أسفل الطريق. فعندما عدت بعد ساعة، كانت الغاغا قد نفذت. حينئذٍ، انتابني شعور بالصدمة؛ كأنَّ أحداً أيقظني من النوم هزاً عند منتصف الليل، فبدأت أركض نحو البيت بأقصى سرعة.

كانت والدتي تطهولنا الطعام على مدار أشهر من دون أيِّ تغيير يُذكر. وكنت أنا وشقيقتي نحصل على أطباق عصيدة الذرة كلِّ صباح قبل البدء بمهامنا. كنَّا نتناول السيمبا وقت الغداء والعشاء مع الخردل أو الفول. ولما كنت في سنِّ الثالثة عشرة، فقد كانت شهيتي للطعام كشهية سياسي سمين، وكنت دائماً أماً لأطبقي قدر الإمكان. صحيح أنني كنت أعني الظروف التي تلت الجفاف والمحاصيل القليلة والأخبار التي تبثُّها المعارضة، لكنني كنت أشعر أنَّ تلك الظروف لا تعنيني.

كنت أُرَدِّد في أثناء العشاء: قليلاً بعد. هكذا تماماً، استمري.

ولكن، بعد أن رأيت الناس يتشاجرون للحصول على الغاغا، اتسعت حدقتا عيني، وتسلَّل خوف عظيم إلى نفسي، ثمَّ ركضت أسفل الطريق باتجاه بيتي، لقد كان شعوراً نابعاً من مكونات نفسي؛ كأنَّ قبضة تُمسك بمعدتي. وحالما وقفت أمام باب المخزن، أصبحت القبضة أشدَّ. فمن بين خمسة أكياس ملأناها بالحبوب، تبقى اثنان فقط، حتى إنَّ الاثنين كانا قد انتهيا بالنسبة إليّ.

وفي أثناء تحديقي بالأكياس، حاولت حساب كمية الدقيق المتبقية لدينا: إنَّهما كيسان يساويان ستة دلاء، والدلو يساوي اثنتي عشرة وجبة لعائلتنا؛ ما يعني أنَّ ستة دلاء تساوي اثنتين وسبعين وجبة تكفي أربعة وعشرين يوماً. ثمَّ أحصيت عدد الأيام التي تسبق الحصاد الآتي: أكثر من مئتين وعشرة أيام، منها مئة وعشرون يوماً – في الأقل – قبل أن تصبح عرانيس الذرة الخضراء يانعة، بحيث نأكلها من دون أن تسبب لنا المرض.

بقي مئتان وعشرة أيام حتى نحصل على الطعام، ونحن لم نزرع البذور بعد. وحتى بعد زراعة البذور، فلا شيء يؤكِّد حتمية نزول المطر، أو الحصول على السماد. وما تبقى لدينا الآن يكفيننا مدة شهر فقط. لذا، لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية العيش بعد ذلك. وما

يؤكد ازدياد الأوضاع سوءاً أنّ الدقيق الذي جلبته والدتي من الطاحونة في المرّة الأخرى، كان جافاً ومليئاً بالغاغا، شأنها في ذلك شأن الآخرين؛ إذ بدأ الجميع يطحن حبوبه بتلك الطريقة بغية زيادة الكمية.

وبعد أيام عدّة، شاهدت والدي يجمع قطع الماعز خاصتنا لبيعه في السوق. كنّا كحال معظم المالاييين نعتمد على ماشيتنا بوصفها مصدراً للثروة والجاه في هذا العالم، وها نحن ذا على وشك بيعها لقاء بعض دلاء من الذرة. لقد أصبح الرجال الذين يديرون أكشاك شواء الكانينيا أصحاب سلطة كبيرة الآن؛ ما يعني أنّ بإمكانهم تخفيض الأسعار متى شاؤوا. كان أحد حيوانات الماعز يُدعى مانكهالالا، وهو ذكر صغير ذو قرنين طويلين، وقد كان المفضّل عندي. كان يدعني أمسك قرونيه لتتصارع، ويتسلّى مع كهامبا أيضاً، ويسمح له بملاحقته.

- أبت، لماذا ستبيع معازنا؟ أنا أحبها.

- كان سعرها خمس مئة الأسبوع الماضي، وقد أصبح الآن أربع مئة فقط. أنا آسف، ولكن ليس بمقدورنا الانتظار لتتخفض الأسعار أكثر من ذلك.

كان مانكهالالا والآخرين مربوطين من أقدامهم الأمامية بحبل طويل. وحين سار والدي أسفل الطريق، بدأ القطيع يتعثّر وينوح. لقد أدركوا المصير الذي ينتظرهم. وفي هذه الأثناء، نظر مانكهالالا إلى الوراء كأنّه يطلب مساعدتي. حتى كهامبا تأفّف وأخذ ينبح بعض الوقت محاولاً الذود عنهم. لكنني خيّبت أملهم؛ إذ لم يكن بمقدوري فعل أيّ شيء لهم، نظراً إلى حاجة عائلتي الملحة للطعام.

في أوائل شهر تشرين الثاني، واصلت الاستيقاظ - كالعادة - عند الرابعة صباحاً؛ للعمل في الحقل وحضر الأثلام. وفي أحد الأيام، وفي أثناء انتظاري في الباحة حتى تنتهي والدتي تحضير العصيدة، خرج والدي من العتمة، قائلاً: لا بهالا اليوم.

قالت والدتي: ماذا؟

قال: يتعيّن علينا ترشيد الاستهلاك. يجب أن يكفيننا المخزون أطول مدة ممكنة.

كان لدينا حينها أقلّ من كيسي حبوب في المخزن. لذا، كنت أعرف أنّني لن أحصل على عصيدة في اليوم القادم، والذي يليه. كانت وجبة الإفطار أول الضحايا، وقد سألت بعدها: ما القادم؟ ولكن، عوضاً عن الشكوى وطرح أسئلة لا معنى لها، تناولت معولي وتوجّهت نحو الحقول للقاء جيفري، حيث أخبرته بحزمة التفشّف التي طالت وجبة الإفطار، قائلاً: هل تصدّق ذلك؟

فسألني: وهل بدأت ذلك منذ اليوم؟ لقد بدأنا نحن منذ أسبوعين. لقد اعتدت الأمر.

كان الجوباردأ في الرابعة صباحاً، وقد أكملنا حفر الأتلام بنشاط كبير. لا بُدّ من أنّ السيمما التي تناولتها في الليلة السابقة خدعت معدتي أيضاً، فقد كانت هادئة ولا تقرر. ولكن، ما إن حلت الساعة السابعة صباحاً حتى بدأت أتضوّر جوعاً، وكانت الشمس الحارقة تمتص طاقتي كلّها. حينئذٍ، نزعت قميصي، ثمّ ربطته على رأسي، لكنّ وزنه الإضافي زاد من تعبتي. الشيء الوحيد الذي سندني من السقوط كان كلمات قالها لي والدي يوماً ما:

– أحسن عمل الأتلام!

– أنا جائع، لقد خارت قواي.

– فكّر في العام القادم يا بني. حاول.

نظرت إلى أسفل لأكتشف أنّ الأتلام التي حضرتها صغيرة وغير متساوية، كأنّ الذي حضرها أفعى منزلقة. كان ابن عمي في الناحية الأخرى من الحقل يلوّح بمعوله، وهو يسبح في العرق ويتنفس بصعوبة.

قلت: سيد جيفري، ما رأيك أن تحضر عني اليوم، وأحضر عنك غداً؟ ما رأيك في هذه

الصفقة؟

لم ينظر إلى الأعلى. ثمّ قال وهو يلهث: سأفكّر في الأمر، لكنّ الأمر يبدو لي كصفقة

أمس.

كنت أحاول أن أمارحه وأشدّ من عزيمته، فقد شعرت بالأسى تجاهه أخيراً؛ إذ تغيّرت أحواله كثيراً بعد وفاة والده. ومع أنّه كان يحاول نسيان ما أصابه أحياناً، إلاّ أنّه بدا شارد الذهن في كثير من الأحيان، ولاسيّما حينما كنت أُسرّ إليه بأحد الأمور المهمة. أخذ جيفري أيضاً يُلْزِمُ غرفته يومين متتاليين من دون التحدّث إلى أحد. لم تكن صحته على ما يرام، ففي أثناء تردده على العيادة حديثاً، تبين أنّه مصاب بمرض فقر الدم. وقد اكتشفت - فيما بعد - أنّ منزله لم يخلّ من البهالا فحسب، بل من الطعام الذي أصبح شحيحاً بصورة ملحوظة.

صرخت عليه ذات مرّة: أنا أمزح. ولكن صدقاً، أنت لا تبدو على ما يرام يا رجل. لم لا تسترح قليلاً؟ لا ترهق نفسك بالعمل، استرح. فقال وهو يلوّح بمعوله: ليس لديّ خيار آخر. أنت تعرف صفقتي.

الأسوأ من ذلك أنّي كنت على يقين بأنّ الظروف التي يمرّ بها جيفري الآن ستمنعه من الالتحاق بالمدرسة الفصل القادم الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى. كانت والدته تكافح لدفع رسوم دراسته، لكنّها الآن تحتاج إليه وإلى شقيقه جيريميا للعمل وتوفير الطعام. كنت أفضل ألاّ يعرف جيفري أنّي على علم بهذا الأمر. لذا، فقد أبقيت على أسلوب المرح في التعامل معه؛ كتولي له: عمّا قريب سيذهب كامكوامبا إلى المدرسة المتوسطة حيث ينتمي، وهو يرتدي بنطالاً، ويمشي بثقة.

فيعلّق جيفري مبتسماً: سيجدنا هناك. لدى أكبر الطلاب سنّاً مخططات كبيرة لكامكوامبا.

ثمّ سألته: ماذا لو ذهب بعيداً إلى مدرسة داخلية محترمة، مثل كاسونغو أو تشايمبا؟ فأجاب: سنجده. لدينا وسائلنا الخاصة لفعل ذلك.

قلت: لن تتمكّن من لمسّه.

قال: حقّاً انتظر لترى.

لم يكن جيفري الوحيد الذي تغيّرت أحواله؛ فمنذ الحصاد الضئيل أصبح كهامبا بطيئاً بعض الشيء. لم أكن قد تنبّهت للأمر، لكنّه كان كلباً مسنّاً عندما أتى مع سقراط بادئ الأمر، وكان قد عاش أفضل أيامه في ضيعة التبغ. كانت الحياة في القرية أكثر صعوبة. وعلى الرغم من الطعام الذي كان يحظى به كلّ ليلة بعد العشاء، فإنني أجزم أنّه كان غير كافٍ.

وبعد أن أصبح كهامبا بطيء الحركة، بدأت فئران الحقول تتفوّق عليه، وأخذت الكلاب الأخرى، التي تفوقه قوّة وسرعة، تستحوذ على أفضل البقايا من دلاء النفايات. لقد أصبح جسده النحيل أكثر ضعفاً، ولاحظت أنّه أصبح ينام مدّة أطول، ويفضّل النوم في الظلّ وراء غرفتي بدلاً من مطاردة الدجاج.

وفي إحدى الأمسيات، قذفت إليه بطبق من السيمبا، لكنّه عجز عن التقاطه ليسقط على رأسه، فأخذت أناكفه، قائلاً: ما المشكلة أيّها العجوز؟ ثمّ انحنى وأكل الطعام بسرعة. فبعض الأشياء لا تتغيّر وحسب.

في أثناء عودتي أنا وجيفري من الحقول ذا صباح، مررنا بمزيد من الغرباء الذين يجوبون الطرق طلباً للغانيو. لقد قدموا من نتشيسي ومتونثاما، ومن القرى الواقعة بعيداً في التلال. وحمل كثير منهم معاول على أكتافهم، إضافة إلى حزم المبانغو التي تحتوي على آنية الطبخ وبعض الثياب.

في الأوقات العادية، كانت والدتي تأخذ حبوبنا إلى الطاحونة لتدرسها بنفسها. ودأبت على حفظ مجموعة سلال من الدقيق لتلبية احتياجاتنا على الدوام. ولكن، حينما بدأ مخزون الذرة في المنطقة بالنفاد، أصبح الناس يشترون الدقيق بكميات ضئيلة تبلغ كيلوجراماً، ونصف كيلوجرام. كانت هذه الكميات الصغيرة توضع في أكياس بلاستيكية زرقاء صغيرة تُسمّى ووكمان (نسبة إلى مشغل الشرائط المحمول)؛ لأنّها كانت تحوي كمية تكفي شخصاً واحداً فقط. كان الووكمان جهاز يستخدمه سكان المدن، لا المزارعين وعائلاتهم.

وفي هذه الأثناء، كان موسم المانجو قد ولّى. لذا، لجأ كثير من الرجال إلى العمل لقاء بعض أوراق من الكاسافا أو المنهوت، وهي نبتة خضار جذرية يمكن طبخ أوراقها، مثل

السبانخ أو السلجم، فضلاً على تجفيف درناتها وطحنها لتصبح دقيقاً. وتُعدّ الكاسافا نبتة شعبية ذائعة الصيت في مناطق أخرى من إفريقية، ولاسيما الكونغو. ولكن في مالواي، فإنّ الكاسافا - شأنها شأن الغاغا - تهمل حين تكون السيما متوافرة.

أيضاً أخذ هؤلاء المتجوّلين يردّدون: «غانيو لقاء ووكمان، غانيو لقاء كاسافا».

وبوجه عام، كان كثير من الأشخاص يتوجّهون إلى منطقتنا؛ بحثاً عن عمل في الشركات، لكنهم لم يكونوا على دراية بأنّ عمّال الشركات يتسكعون في السوق من دون عمل، أملين بوقوع معجزة.

وكثيراً ما كان الغرباء يسألون: معذرة، أين يمكنني إيجاد الشركة الموسومة بالرقم 924.

فيجيب أحد العمّال: لا تتعب نفسك؛ فلا شيء هناك. أنا متأكد؛ فأنا أعمل هناك.

في حين كان الواغانيو الجائعون يعبرون طرقات السوق، ويمرّون ببيوت الأغنياء، كانت روائح السيما والدجاج المطبوخ وقت الغداء تزكم أنوفهم، غير آبهة بالجوع المحيط بها من كلّ ناحية. ولما كان كثير من المزارعين أخذوا يبيعون حيواناتهم، فقد أصبح سعر الدجاج زهيداً، بحيث يمكن لكلّ من يملك المال شراؤه.

في الوقت الذي يبحث فيه الرجال عن عمل، تجمّعت زوجاتهم وأبنائهم أمام بيت غيلبرت طلباً للأعطيات. كان نحو أربعين منهم يصلون هناك كلّ صباح، كما مرّ المئات منهم منذ بدء المشاكل في آب. انتظر بعضهم طويلاً للحصول على ووكمان من والدة غيلبرت، في حين وصل آخرون مُنهكين، ولم يقووا على مواصلة الانتظار. لقد نشروا بطانياتهم تحت الأشجار وطهوا السيما، ثمّ غادروا بعدما استعادوا بعضاً من قوتهم. وانهار بعض آخر منهم على الطريق، وأصبحوا في أمسّ الحاجة إلى العناية. لقد أصبح بستان اليوكالبتوس في بيت غيلبرت يضم خليطاً من أماكن النوم.

وفي هذه الأثناء، كان الرئيس مولوزي مشغولاً بالتنقّل عبر البلاد بطريقته المعتادة، مانحاً أعطيات قليلة من المال؛ لإظهار أنّه رجل حكيم. وقد نظّمت لذلك تجمّعات ضخمة

للموظفين الأوفياء، تخلَّها بعض الرقصات والعروض العسكرية وكثير من الطعام. وحيثما حلَّ الرئيس، كان يلقي للفقراء بدقيق أو مال يكفيان لتذكُّره في الانتخابات المقبلة.

رأيته في مدرسة ويمبي الابتدائية عام 1999م خلال إحدى زيارته الخاطفة. كان هنالك جوقة غنائية نسائية وغولي وامكولو، حيث وهب كلاً من الراقصين ورقةً من فئة خمسين كواتشا. وأصطف السياسيون المحليون؛ للحصول على أُعطياتهم. كانت تلك أول مرّة أرى فيها الرئيس شخصياً. لقد كان أصلح وسميناً، وعندما نهض وسار باتجاه المنصة، بدت رجلاه القيصرتان لا تتناسب مع جسده المدوّر.

أعتقد أنه قال: آسف لرؤية هذه المدرسة على حالها هذا. علينا هدم المكان كله وإعادة بنائه من الصفر، بنيتها مرّة أخرى قوية راسخة! كما تحتاج بيوت المدرّسين إلى الترتيب، ويحتاج الطلاب إلى مقاعد وكتب جديدة!.

أخذ الحضور يهتفون ويصفقون لدى سماعهم ذلك. ولكن، بدلاً من شراء مقاعد جديدة، أرسل مولوزي رجالاً إلى بستان اليوكالبتوس، لقطع بعض الأشجار؛ لصنع مقاعد منها. وحتى عندما فعلوا ذلك، كان عددها ما يزال غير كافٍ. أمّا المدرّسون فلم يحصلوا على بيوت جديدة قطّ، وكلّ ما قدّمه الرئيس للمدرسة كان طبقة طلاء جديدة، وصفائح معدنية (زينكو) جديدة للسقف.

كان هذا الرئيس هو نفسه الذي وعد كلَّ شخص في مالوي بالحصول على زوج أحذية جديد إن هوفاز في الانتخابات. أعتقد أنّكم تخيلتم ما حدث بعد ذلك. فبعد أن صوّت له الناس وفاز في الانتخابات، بدأ الجميع يسأله: أين أحذيتنا؟، فخرج عليهم على أثير الإذاعة، وقال شيئاً من قبيل: سيداتي سادتي، هل أبدو لكم مجنوناً؟ كيف لي أن أعرف مقاس أقدام سكان مالوي كافة؟ لم أعدكم يوماً بأحذية. كما ترون فرئيسنا كان رجلاً مرحاً.

على الرغم من تصاعد حدة الغضب حيال اختفاء فائض الذرة، فإن الحكومة لم تقل شيئاً عن هذا الموضوع عبر المذياع. ولم تقدّم أيّ حلول ناجعة لمشكلة الجوع المتفاقمة التي حاقت بالجميع. لذا، فعندما أعلن الرئيس مولوزي أنّه سيتوقّف في كاسونغولتعيين زعيم

محلي جديد، طلب جميع الزعماء الفرعيين في المنطقة إلى والد غيلبرت الوقوف والتكلم نيابة عنهم؛ إذ كان والد غيلبرت مسلماً، حاله حال الرئيس، وقد يساعد ذلك على تلبية بعض مطالبهم.

قالوا له: أنتَ خطيب مُفوّه، ومحسوب عليه. عليك أن تُعنّفه بتركنا وشأننا.

وقف الآلاف تحت أشعة الشمس يوم الموكب، على أمل التمكن من سماع ما سيقوله الرئيس بخصوص الأزمة. ولكن، بدلاً من ذلك، شاهدوا كثيراً من الرقصات، واستمعوا إلى كثير من الخطابات التي امتدت ساعات عدّة تحدث أصحابها عن قوة الرئيس وعظمته، وعن تكرّمه بالموافقة على المشروعات الجديدة التي ستحظى بها المنطقة، مثل: بناء مراحيض جديدة في بعض القرى، وحفر آبار جديدة.

كان الرئيس حينها يترأس أيضاً منظمة تطوير دول جنوب إفريقية، وهي تحالف اجتماعي اقتصادي يضم خمس عشرة دولة في جنوب قارة إفريقية. وفي أثناء رئاسته للمنظمة، اندلعت حروب شديدة مهلكة في أرجاء أخرى من القارة، مثل: أنغولا، وبوروندي، والسودان. وقد انتقلت الإبادة الجماعية التي أودت بحياة أكثر من ثمان مئة ألف شخص من قبيلة توتسي في رواندا إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية، مُتسببة في اندلاع حرب هناك، حتى إنّ مولوزي استضاف قادة من رواندا والكونغو ببالنتاير، في محاولة للتوسّط وإحلال السلام. وبالنظر إلى جهوده الملحوظة في قارة إفريقية، فقد كان محيراً عجزه عن رؤية المشكلات التي تحيق ببلده.

على أيّ حال، فبعد ساعة من الرقص والغناء، حان الوقت أخيراً كي يتحدث والد غيلبرت، فنهض عن مقعده الذي كان أمام الرئيس مباشرة، ووقف على المنصة أمام الناس، ثمّ قال مُلتفتاً إلى الرئيس: سيادة الرئيس، أودّ تهنّتك ليس فقط على إنجازاتك في مالاوي، بل في شتّى بقاع قارة إفريقية العظيمة. فقد سمعنا عن كلّ ما تفعله في الكونغو وعن نجاحاتك هناك. نحن فخورون جداً برئيسنا. ولكن أرجو، عليك أن تفهم أنّنا نخوض حرباً من نوع آخر في مالاوي، وهي حرب ضد الجوع.

ثمَّ طلب إلى الرئيس إيقاف تمويل الآبار والمراحيض، واستغلال المال لشراء الحبوب، بقوله: لنكن منطقيين؛ ما حاجتك إلى المرحاض إذا لم تجد شيئاً تأكله أصلاً؟.

انفجر الحضور بتصفيق حارٍّ مطوّل لدرجة أنّ المتحدث الآتي اضطر إلى الانتظار بعض الوقت حتى هدأ الجميع. وحين اعتلى هذا المتحدث المنصة، أخذ فقط يكيل المديح للرئيس، فارتفع صوت الحضور استهجاناً.

ثمَّ صرخوا قائلين: اجلس، فما تقوله غير مفيد!. لقد عبّر عن حالنا الزعيم ويمبي!.
يا له من سياسي غبي! حين تظهر السيمة تنتفي السياسة.

بعد ذلك بوقت قصير، وحين نهض الرئيس للتحدث، اقترب بعض رجاله (كانوا يرتدون زياً رسمياً) من والد غيلبرت، وطلبوا إليه الذهاب معهم. كان الزعيم يعرف أنّ من عادة الرئيس توزيع الأعطيات في مثل هذه المناسبات. لذا، فقد تحمّس وقال في نفسه: لا من بدّ أنّهم سيعطوننا مالاً، لا بدّ من أنّ خطابي آتى أكله».

اقتاد ستة رجال الزعيم خلف مبنى قرب المنصة، وما إن وصلوا إلى هناك حتى واجهوه.

سأل أحدهم غاضباً: لم تفوهت بتلك الترهات؟

وقبل أن يتمكّن الزعيم ويمبي من الإجابة، طرحوه أرضاً، وبدأوا ضربه بالعصي والهراري. وبعد دقائق عدّة، ترك (البلطجية) الزعيم على الأرض غارقاً بدمائه، وانسلوا بين الحضور. وحين عثر أحد الأصدقاء على الزعيم ويمبي بعدها بدقائق، رفض هذا الأخير الذهاب إلى المستشفى؛ خشية أن يقتله (البلطجية) في فراشه هناك. عندما عاد غيلبرت إلى البيت ظهيرة ذلك اليوم، شاهد والده ممدداً على الأريكة، وهو عاجز عن الحركة. وفي المساء كانت قد ظهرت كدمات كبيرة أرجوانية على صدره وبطنه وذراعيه.

مرّت أسابيع عدّة لم يفارق فيها الزعيم الأريكة أو السرير في محاولة للتعافي من إصاباته. بعد ذلك، بدأ بالتسلل إلى العيادة الواقعة على أطراف المنطقة، وكان حريصاً

أشدّ الحرص على إخفاء مكان وجوده. ولم يُخبر أحداً بنتائج الفحوص الكثيرة التي خضع لها. لقد عانى الزعيم ويمبي في صمت؛ خوفاً من أن يعرف رجالات مولوزي بأفعاله.

كان تحوّل الأحداث ذلك مخيفاً بالنسبة إليّ؛ فزعيماً كان مثل والدنا جميعاً، والرجل الذي يحمي منطقتنا الصغيرة، ويمثّلنا أمام بقية مناطق البلاد. وحين سمعنا أنه قد تعرّض للضرب، شعرنا بأنّه اعتدّى علينا جميعاً، وأننا لم نعد نأمن على أنفسنا من أيّ اعتداء. وإذا كانت الحكومة قد تعاملت مع زعيمنا بتلك الطريقة، ومع الجوع الذي يلوح في الأفق، فما نوع المعاملة التي سيتلقاها أمثالنا من عامة الشعب؟

